سمْرَاء

د / منى محمود - مصر

فُتِحَ الباب قليلًا لتمتد منه يدٌ خشنة ظافرة، تحمل منديلًا قماشيًا أبيض اللون، مُلطّخًا بالدماء! .. فيزداد الطبل اشتعالًا، وتموج زغاريد النسوة لتعصِف بحالة الترقُب الجاثمة على الأنفاس لدقائق مضت.

عاد ذو اليد الخشنة مُنهكًا بخُطى يتجاذبها، ليُلقى بنفسه على الفراش، مُعطيًا ظهره لذاك الجسد المُنكمش بجواره، وغط فى سُبات عميق.

جسدٌ مُنكمش ضئيل، لا يحمل من علامات الأنوثة سوى القليل، وجه شاحب، عينان مُتحجّرتان، مُمتلئتان بدمع مُحتبس. دمعٌ مُقيّد .. لم يعِ يقينًا إن كان بإمكانه تحطيم قُضبانه، أو حتى الانفجار خلالها، فينهمر مُتحرّرًا على الوجنتين ..

كُنت أنا .. "سمراء"، هذا اسمى. لا أعلم سبب تسميتى هكذا رغم بياضى الشاهق، سوى أنها كانت رغبة أبى، رحمه الله.

ظللت ثابتة مكانى، بلا حِراك. إلى أن هدأ الضجيج بالخارج شيئًا فشيئًا ..

تناهى إلى مسامعى أخيرًا صوت مزلاج الباب الخارجى للبيت وهو يُغلَق بإحكام، وانطفأ بصيص الضوء المُنبعِث من أسفل باب غرفتى.

حتمًا قد رحل الجميع، ودلَفتْ حماتى للنوم بالغرفة المُجاوِرة، لا يفصلها عنى سوى هذا الجدار..

انزعجت بشدة، فهرولت مُسرِعة من تحت غطائى الحريرى لأرتدى ثيابًا، كانت قد وضعتها لى أمّى على حافة السرير. أخبرتنى أنها ثياب ليلة العُرس. وجدتها مُلقاة أرضًا.

لم أكتفِ بها، فارتديت الروب فوقها. كان طويلًا جدًا، حتى أنه أخفى كلتا قدمايّ بالكامل. أحكمت الرُباط ، رغم يدايّ المُرتعدتان، فلم يعُد يظهر منى سوى رأسى والكفين.

كان خفقان قلبى ينتفض له جسدى بأكمله، بشكل متواتر لا يكاد ينقطع. حتى صوت نبضى، كان صداه فى أذنايّ كقرع الطبول !

رمقت الرجل النائم بذعر.. ثم الحائط الفاصل بينى وبين حماتى بذعر أكبر .. فوجدتنى أتكوّم على الأرض بجانب السرير، أضُم ساقايّ لصدرى بعُنف، وكأننى أؤكد لنفسى أنى لم أزل أملك شيئًا فى جسدى لم يُمتهَن بعد .. فلم أتأكد مُطلقًا.

لست أدرى لماذا فى هذه اللحظة بالذات تذكرت يوم "خِتانى" .. ليلة أتت أمّى بامرأة غريبة لبيتنا الصغير. ودونما أىّ حديث، أرقدتنى أمّى على الأرض، فى وضع يشبه ذلك الذى كنت عليه مُنذ قليل. جردتنى من ثيابى عُنوة، لتقترب المرأة الغريبة بثيابها السوداء .. كانت هى الأخرى لديها أصابع قاسية، خشنة، امتدت لجسدى بجرأة .. بينما أحملق انا بدهشة، مكتومة الأنفاس .. لا أعى ما يحدث، ولا ما سيحدث ..

لم تمُر اللحظة .. إلا وعلا صُراخى من شدة الألم .. ومن رؤية الدماء .. بل، ومن صدمتى، أكثر من أى شيئ آخر!

انتظرت من أمّى تفسيرًا لما فعلوه بى فى الأيام التالية، ولم يحدث. لا أذكر أنى قد أتيت بخطأ يستحق كل هذا العقاب! كيف فعَلت بى أمى ذلك، وهى من تُشدّد علىّ دومًا منذ وعيت على الدنيا، أن عورتى خطٌ أحمر .. لا يجوز كشفها، والموت أرحم من هتكها .. لا أعلم !

انهمر دمعى أخيرًا فى صمت واستسلام .. انهمر مُتصارعًا مُتقازفًا، مُتسائلًا : لماذا يُفعَل بى هذا؟ وبتلك الصورة الموجعة؟ ألأنى يتيمة؟! أوَلو كان أبى على قيد الحياة، كان سيكون بإمكانه حمايتى من كل هذا؟ .. لا أعلم !

لماذا أصرّت حماتى على أن يتم زفافى على ابنها الآن، وقد رأيتُ شيخ زاويتنا يُشدّد على أمّى مِرارًا؛ أنى لازلت أصغر عن السن القانونى بالكثير. لم أفهم حينها ما هذا السن القانونى. ولكن .. لماذا وافقت أمّى؟ لماذا استسلمت لقسوة حماتى؟ ألأنها مكسورة الجناح، بلا رجل؟ أم أنها وجدت فى ذلك الفرصة لتتخلص من عبء وجودى بالبيت؟! .. لا أعلم !

كيف للأغراب أن يهتكوا سترى، ويتقاذفون منديلًا يحمل دمى فيما بينهم، وعلى الملأ هكذا؟! .. أسمع دومًا كلمة "الشرف" ممزوجة بفعلتهم القبيحة تلك .. أوَيتجسد معنى الشرف فى بضع قطرات دماء؟! .. لا أعلم !

وما أكثر ما لا اعلمه فى هذه الحياة .. حتى القراءة والكتابة، تعلمتهما بالكاد، خِلسة من جارتنا التى تذهب للمدرسة. هى لديها أب.

انتفضتُ من سيل أفكارى بذُعر إثر تحرُّك الرجل القابع فى الفراش، لينام مُستلقيًا على ظهره .. كتمت أنفاسى بكلتا يداىّ، حتى تأكدت أنه لم يزل مُستغرِقًا فى النوم، ولن يستيقظ الآن. اطمئننت، فأنزلت يداىّ الأولى تلو الأخرى لأتنفس ببطء ..

تسمّرت عيناىّ حينها على وجهه، مُسترجِعة لحظات الفراش معه .. كانت قاسية كملامحه، مؤلمة. كان ينتزع كل شيئ منى انتزاعًا .. وجنتاىّ .. شفتاىّ .. كل شيئ .. كل شيئ .. !

شعرت بالعُرى رغم الثياب! .. فهرعت إلى الدولاب، وارتديت جلبابًا فضفاضًا فوق ملابسى الطويلة، وعُدت لأتكوم ثانيةً على الأرض ..

obeikandl.com